نَجَوْنَا

وَلَكِنَّنَا فَقَدْنَا شَيْئًا

الكاتبة:أبرار العصعوص.

نَجَونَا، ولَكِنَّنَا فَقَدنَا شيئًا.

الكاتبة: أبرار العصعوص.

© [2025] أبرار العصعوص. جميع الحقوق محفوظة.

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله أو تخزينه أو معالجته بأي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة كانت، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل أو أي نظام لاسترجاع المعلومات، دون إذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

قبل أن تبدأ...

هذا الكتاب ليس حكاية عابرة،

بل محطات من شعور،

وهمسات من ذاكرة،

ونبضات كُتبت من القلب... إليك.

قد تجد نفسك هنا،

في سطر، أو بين سطرين،

في وجع يشبهك، أو أملٍ كنت تفتقده.

اقرأه على مهل، ودعِ كل كلمة تأخذك حيث تشاء.

وفي النهاية...

لا تنسَ أن تعود إلى الصفحة الأخيرة، فهناك شيء ينتظرك.

الإهداء

إلى كلِّ من اقتُلِع من تراب وطنه، إلى كلِّ مغتربٍ حملَ الحنين زادًا، إلى الذين رغم الانكسار ما زالوا يصمدون... إليكم هذا الكتاب.

من العادة أن يكون الإهداء قصيرًا، لكن هذا لا ينطبق على كتبي، فمن حق من دعمنا أن يُشكر، إذ قيل: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".
وقد يزداد الإهداء مع كل كتاب، لكنه لن يتغير بإذن الله.
كل نجاح هو بفضل اللهّ وتوفيقه، فالحمد لله أولًا وآخرًا.
أُهدي روايتي ، الغير الاعتيادية:
إلى أهلي، السند الأول في حياة الإنسان: أمي وأبي، إخوتي وأخواتي، إلى معلمتي الحبيبة لبنى نجم، أول من شهد بزوغ حروفي من بين أناملي، وإلى معلماتي العزيزات اللواتي بثثن في نفسي الأمل وأيقن بموهبتي: أريج زكارنة، أسماء أبو الرب، أشجان أبو عرة، نعمات بشارات.
لو كان بإمكاني ذكركن جميعًا لذكرتكن، لكنكن في قلبي ودعواتي دائمًا.
إلى صديقاتي، رفيقات الدرب ومؤنسات الروح، كل واحدة منكن لها أثر طيب في حياتي:
شيماء الديري، سما وشاحي، نغم العصعوص، لارا تركمان، فاطمة الديري، ضحى الحاج.
شكري لكم جميعًا و هذا بداية لحكاية جميلة.

المقدمة

الغربة، الحرب، النجاة التي لا تعني السعادة، فقدان الأحبة، التشبث بالحياة رغم كل شيء.

ضحكنا في المخبأ، ثم بكى أحدنا دون صوت.

بدأت قصة أخرى لحياة لم تبدأ بعد.

نجوت، لكني لم أعد أنا.

لكننا نبقى أقوياء بالله.

بين الركام كانت صورهما

فتحتُ حقيبتي في غرفة غريبة، في بيت لا يشبه بيتنا. خرجت صورة عيوني وهي تضحك، و وجهي وهو يغلق عينيه في الظهر... كأن الذكريات لُفَّت بملاءة تراب، ولم يبقَ منها إلا الغبار.

ضحكنا ثم سكتنا دفعة واحدة

كنا خمسة، نضحك على نكتة لا تستحق. في لحظة واحدة صمت الجميع، كأن صوت القذيفة اخترق الحنجرة قبل أن يمسّ الأرض. كنا نعرف أن هذا الضحك سيتبعه موت.

قبل أن نسقط
"ولن نسقط"

الحذاء الأحمر

كان لي حذاء أحمر، صغير كأمنياتي، لامع و ضحكتي حينها. كنت أرتديه في الأعياد، أركض به نحو الحلوى والبالونات، فأشعر أن العالم لا شيء إلاّ صوتي وأنا أضحك.

في ليلة الغياب، نسيتُه عند باب البيت، كما نسيتُ جزءًا مني.

منذ تلك الليلة، لم أعد أركض، ولم أرَ حذاءً يشبهه قط.

أعتقد أنه ما زال هناك... ينتظر طفلة لن تعود.

صينية الغداء

كانت أمي تضع الطعام في صينية كبيرة، كل يوم. نجلس حولها بلا ترتيب، نمدّ أيدينا كأننا نخاف أن ينتهي كل شيء قبل أن نشبع.

لم تكن الوجبة فاخرة، لكنها كانت كاملة... مثل حبنا للوطن ، مثل دفء البيت.

اليوم، أتناول طعامي وحدي، في صحن صغير، على طاولة كبيرة، بلا حكاية.

الطعام أشهى هنا، لكنّه لا يُشبِع.

آخر صورة جماعية

التُقطتْ الصورة في آذار. لم نكن نعلم أنـها آخر صورة لنا جميعًا، واقفين بصفٍ واحد، نضحك كأن الحياة تدين لنا بالعُمر الطويل.

الصور لا تخبرك أنـها النـهاية، لا تقول لك من سيموت، من سيرحل، من سيتغيّر.

لكنـها تحفظ الدليل... أننّا كنّا، ذات مرة، معًا.

صوت الملاعق.

كان لصوت الملاعق وهي تُضرب بخفة على الأطباق لحنٌ لا يُنسى.

كنا نضحك بصوت عالٍ، وأبي كان يصبّ الشاي دون أن يسأل من يريد، لأنه يعرف.

كل شيء كان مفهومًا دون شرح، وكأن البيت كان يعرف قلوبنا قبل أن ننطق.

الآن، أتناول طعامي في صمت، وأضع الملعقة برفق شديد، كأن الضجيج ممنوعٌ بعد الفقد.

الراديو

كان الراديو في المطبخ يشبه جارًا عجوزًا، لا يسكت أبدًا.

في الصباح، يُذيع فيروز، وفي المساء أخبارًا لا نفهمها، لكننا نسمعها ونحن نرتّب الغرف ونغسل الصحون.

حين بدأ القصف، سكت الراديو فجأة.

ولا شيء بعده استطاع أن يملأ ذلك الفراغ... لا الأخبار، ولا الأغاني، ولا نحن.

الطاولة الخشبية

ما زلت أذكر تلك الطاولة الخشبية القديمة، كانت متعرجة الحواف، وبها خدش صغير يشبه حرف "ن".

أمي كانت تضع عليها الخبز الساخن، وتقول: "الحياة تبدأ من هذه الطاولة".

لكننا كبرنا فجأة... الطاولة تكسرت، ولم يبقَ في بيوتنا شيء نبدأ منه الحياة.

شريط الشعر الأبيض

كانت صديقتي تضع شريطًا أبيض في شعرها حين تخرج إلى السوق، كانت في العاشرة من عمرها.

لا تعرف ما اسمه، لكنها كانت تقول: "أشعر أنني مرتبة به، وكفى."

بعد أن تباعدت طرقنا، لم تعد تضعه...

كأن الفقد يبدأ من أشياء صغيرة لا يراها سوانا.

ثوب العيد

أعددت ثوب العيد قبل العيد بأيام، وعلّقته خلف الباب.

كنت أقيسه كل صباح، وأبتسم لنفسي في المرآة، ثم أُعيده كما كان، منتظرًا فرحة لم تصل.

في الليلة التي قصفوا فيها المدينة، تركت كل شيء… إلا الثوب.

ضممته إلى صدري، وركضت.

ماء الزهر

كانت جدتي تضع ماء الزهر في فناجين القهوة، وفي كعك العيد، وعلى رؤوسنا حين نخاف.

تقول: "الروائح تذكّرنا أن الدنيا طيبة، حتى حين توجعنا."

الآن... صرت أفتح الزجاجة وأبكي.

لم أعد أحتاجها لطرد الحزن، بل لأتذكّر أنني كنت يومًا بخير.

وجه جدتي

وجه جدتي كان بسيطًا، لا تضيئه إلاّ ابتسامتها الخجولة.

كانت تفتح الباب بهدوء، تمسح على رأسي دون أن تقول شيئًا، وتذهب لتصلي.

كان وجودها أمان أخرى.

في المرة الأخيرة، دخلت ولم تمسح على رأسي...

كأن قلبها كان يعلم.

نافذة الغرفة

كانت نافذتي تطلّ على شجرة برتقال.

أعدّ ثمارها كل صباح، وأقول في قلبي: "حين تنضج، سأقطفها وأهديها له."

لكن الشتاء جاء باكرًا هذا العام...

وجاء معه ما لم يُترك لنا وقتًا للقطف، ولا للوداع.

الباب الأزرق

كان باب بيتنا أزرق، لا يشبه ألوان البيوت حوله، لكننا كنا نحبّه كما هو.

كل صباح، أفتحه كأنني أفتح ذراعيَّ للحياة، وأغلقه كما تُغلق عين صغيرة نامت بسلام.

في اليوم الذي رحلنا فيه، التفتُّ لأراه آخر مرة...

كان مفتوحًا، كأنّه يرفض أن يصدق أننا ذهبنا.

أول كتاب

أول كتاب قرأته كان بلا غلاف.

صفحات ملوّنة، مرقّعة الأطراف، ورائحة الورق فيه كأنها تحمل أسرارًا لا تُقال.

أمسكته كل يوم كما يُمسك طفل يده بأمان أمه.

منذ أن ضاع، لم أعد أقرأ كما كنت...

كأن شيئًا انكسر في علاقة قلبي بالحروف.

الممر

كان في بيتنا ممر طويل، بارده في الشتاء، يصرّ صوته تحت أقدامنا.

نركض فيه ونحن نضحك، ثم نختبئ خلف الأبواب، ونصرخ: "وجدتني!"

أحيانًا، أشعر أن حياتي كلها ممر طويل، أركض فيه، ولا أحد يجدني.

مرآة صغيرة

في الغرفة، مرآة صغيرة معلقة بزاوية مائلة.

كنت أضحك فيها، أجرّب التعبير الحزين، أغيّر تسريحة شعري، وأقول لنفسي: "جميلة، حتى ولو لم يركِ أحد."

الآن، لا أملك مرآة.

لكنني حين أتأمل الماء... لا أرى وجهًا، بل ظلاً يشبهني قليلاً.

الغطاء المطرّز

طرّزت أمي غطاء الطاولة بيديها، وردة تلو وردة.

كانت تقول: "لكل وردة حكاية، وكل غرزة حنين."

حين أكلنا على الطاولة الأخيرة قبل النزوح، كانت الألوان باهتة.

كأن الورد تعب من الانتظار... أو منّا.

كعك السمسم

كانت الجارة تطرق الباب قبل العيد بيوم، وتقدّم كعك السمسم في صينية مغسولة، دافئ، وناعم، وتفوح منه روائح عمر كامل.

كنا نضحك معًا دون مناسبة... كأنّ العيد يبدأ من الرائحة.

لم نرَ الجارة بعد الرحيل، ولا الكعك.

صرنا نشتريه من المحلات، باردًا، ملفوفًا في ورق... لا يشبه شيئًا.

الظلّ الطويل

كنت أمشي في ظهيرة الصيف، أتأمل ظلّي وهو يسبقني، ويتمدّد كأنّه ولد أطول منّي.

الآن أمشي... ولا ظلّ لي.

ربما لأن الشمس في الغربة لا تعرفني جيدًا.

الحقيبة الصفراء

كانت حقيبتي صفراء، وفيها دفتر ملوّن، وممحاة على شكل فراشة.

في آخر يوم دراسي، كتبت صديقتي: "نلتقي بعد العطلة."

العطلة طالت، والمدرسة انهارت، والصديقة... لا أدري أين ذهبت.

صوت جدتي

جدتي كانت تحكي لنا الحكايات دون أن تسأل إن كنا نريد،

وتضحك على كل نهاية، حتى تلك التي تبكينا.

في الليل، أغمض عينيّ، وأتخيلها تقول لي:

"نامي... لا تخافي، هذا كله حلم، وسينتهي."

ركوة القهوة

كان أبي يصنع القهوة بنفسه.

يضع الركوة على النار، ويقف ينتظرها بصبر غريب، كأنّه يحاورها.

وكان يقول: "القهوة لا تُستعجل، هي امرأة."

اليوم، أشرب القهوة من ماكينة، بلا صبر... وبلا حوار.

الغيمة التي تأخرت

كانت الغيوم تمرّ فوق بيتنا كل مساء، نعدّها كأننا نحفظ أسماءها،

وكانت أمي تقول: "حين تتأخر غيمة عن موعدها، فذلك لأنها تحمل شيئًا ثقيلاً."

تأخرت الغيمة في ذلك المساء...

وحين هطلت، لم تكن مطرًا، بل فجيعة نزلت على هيئة خبر.

اليد التي تُمسك دون أن تُمسك

كانت صديقتي تمسك يدي في الزحام دون أن تنظر إليّ.

كانت تُمسك وكأن قلبها يعرف أنني قريبة، حتى حين لا تراني.

اليوم، أمشي بين الغرباء،

وأتوق لتلك اليد... اليد التي لا تشدّني بقوة، لكنها تملأ الأرض أمنًا.

درج الخزائن

كان في بيتنا درج سري نخبئ فيه الصور،

بطاقات العيد، أساور بلاستيكية، ريشة طائر وجدتها مرة في الحديقة،

وأوراق كتبنا عليها أحلامنا: "حين أكبر، سأصبح كاتباً"

"سأسافر إلى الأندلس"، "سأشتري بيتًا على البحر".

نسيتُ ذلك الدرج...

لكن الأحلام ما زالت هناك، سجينة بيت سُرق منا ذات ليل.

الكرسي المهتز

في الزاوية كرسي خشبي يهتزّ حين نجلس عليه،

كان أبي يجلس فيه بعد صلاة العشاء، يقرأ القرآن بصوت منخفض،

ونحن نتسلل إليه بعده، فقط لنشعر بما شعر به.

ذات ليلة، لم يعد أبي.

وبقي الكرسي يهتزّ... لكنّ أحدًا لم يجرؤ أن يجلس فيه بعده.

تحت الركام.

كنا نقول إنّ للجدران آذانًا ، فمن يسمعنا من تحت الركام.

وجوه تحت الغبار

حين وصلتُ إلى الحيّ الذي كنت أركض فيه طفلاً،

لم أجد البيوت، وجدتُ جدرانًا مائلة، وسقفًا على وشك أن يتهدّم من البكاء.

كل شيء ساكن... إلا الغبار، كان يتحرك كأنّه يُفتش عن الراحلين.

جلستُ على حجرٍ مكسور، فرأيتُ بقايا لعبة...

ثم صورة نصف محترقة، لطفل يضحك... ووجه امرأة كان يبدو أنه ناداني.

كنتُ أنفض الرماد عنهم... كمن يحاول أن يعيد الحياة من رمش ميت.

في لحظة، فهمت: نحن لا نبحث عن البيوت حين نعود،

بل نبحث عن الذين كانوا فيها... الذين لم يُكملوا حديثهم، ولا نزلوا السلم، ولا قالوا وداعًا.

حين صمتت الجدران

كنا نقول إنّ للجدران آذانًا، وإنها تحفظ الأسرار.

لكنني رأيتُ الجدران تنهار، وتسقط بكل ما فيها...

لم تصرخ، لم تعترض، لم تحكِ شيئًا.

سقطت بصمت مريب، كأنها خافت من أن تُزعج من ماتوا تحتها.

في ذلك اليوم، فهمت أن الخوف لا يسكن البشر فقط،

بل يسكن الجدران، والمرايا، والأبواب التي لا تُفتح أبدًا.

حين صمتت الجدران، تحدثت القلوب...

لكنّ أحدًا لم يسمعها.

يد في الرماد

كانت تلك اليد الصغيرة تخرج من تحت الركام،

كأنها تبحث عن لعبة ضائعة... أو أمٍّ تأخرت في العودة.

لم أستطع أن أتحرك، كانت اليد جامدة، لكنّني أقسم أنني شعرت بها تناديني.

اقتربت... لم أجد سوى أصابع متيبّسة، وثوب طفوليّ ممزّق،

ورائحة واحدة: الحنين.

نحن لا ندفن الأجساد فقط،

نحن ندفن الصرخات التي لم تُطلق، والضحكات التي لم تكتمل،

و"أحبكِ" التي ماتت قبل أن تُقال.

غرفة بلا أبواب

دخلت إلى غرفة بلا أبواب،

كانت نصفها منهارًا، والنصف الآخر مغطّى بطين المطر،

لكنّ في الجدار صورة معلقة... ما زالت في مكانها.

صورة لرجل وامرأة وطفلين. يبتسمون كأنهم لا يعرفون ما سيأتي.

اقتربتُ، تأملتها طويلاً...

شعرت أن عيونهم تنظر إليّ بلوم، كأنهم يسألونني:

"لماذا لم ننجُ نحن أيضًا؟"

لم أُجب. كيف أشرح لهم أن القلوب وحدها لم تكن تكفي للهروب؟

نداء أخير

من تحت الأنقاض، كان صوتها يأتيني ضعيفًا:

“أنا هنا... لا تذهب... أنا بخير... فقط اسمعني.”

حفرتُ بيدي، مزقتُ أظافري، وقلبي.

كان الغبار يدخل فمي، والدمع يخنق نظري،

لكن صوتها كان يُرشدني كما لو أنه خريطة.

وصلتُ... لكن متأخرًا بدقيقة.

دقيقة واحدة فقط، فصلتني عن إنقاذها.

دقيقة... هي كلّ ما أحتاجه لأبقى حيًا من الداخل.

منذ ذلك اليوم...

وأنا أعيش على هامش الدقيقة الضائعة.

ما تبقّى من البيت

لم يبقَ من البيت إلا زاوية مائلة،

وبلاطة وحيدة سليمة...

قال أبي: "هنا كنّا نجلس في المساء."

جلستُ على البلاطة كمن يجلس في حضن ذاكرة،

أغمضتُ عينيّ... ورأيتُ أمي تقلب القهوة على النار،

وأبي يقرأ جريدة قديمة،

وأخوتي يتشاجرون على التحكم في جهاز التحكم.

فتحتُ عينيّ...

لم أجد سوى حجارة، وسماء رمادية،

وبلاطة وحيدة... ما زالت تحفظ حرارة الجلسة الأخيرة.

النافذة الوحيدة

تسللتُ عبر الركام إلى ما كان يومًا غرفتي،

وبحثتُ عن النافذة التي كنت أكتب بقربها كل مساء.

وجدتها مفتوحة، كأنّها لم تُغلق أبدًا منذ رحيلي.

اقتربت، نظرتُ منها...

لم أجد الشجرة التي كنت أقرأ بظلّها،

ولا القمر الذي كنت أُحادثه كل ليلة.

وجدت فقط هواءً باردًا... وذكرى دافئة لا تموت.

جدار بصوت صديقتي

كان الجدار مليئًا برسومات صديقتي،

قلب وأحرف ملتوية، وردة، عصفور، نجمة بخمسة أطراف غريبة.

كنتُ أضحك منها، وأقول: "هذه ليست فنًا، هذه تشويهات جدران!"

لكنني الآن أبحث عن كل شقّ في ذلك الجدار.

كل لمسة كانت تُخبئ ضحكة،

كل خطّ كان طريقًا لصوتها وهي تقول لي:

"انظر! هذه وردتي لك!"

الجدران لا تحتفظ بالشكل فقط...

بل بالضحكات التي لم تُدوّن في مكان آخر.

السجادة التي لم تُسحب

رأيت سجادة قديمة، تغطي نصف الأرضية،

كأنّ أحدًا نسي أن يسحبها أثناء الهروب.

تقدّمتُ نحوها، ولمستها... كانت لا تزال دافئة.

كأن الأرواح لم تخرج من البيت، بل اختبأت تحتها خوفًا من الصراخ.

هل يمكن لحافة سجادة... أن تكون آخر ما لامس أقدام الأحياء بقلوبنا؟

هل يمكن لقطعة قماش... أن تحتوي ذاكرة بيت بأكمله؟

أؤمن الآن أن الأشياء لا ترحل،

نحن الذين نُجبر على الابتعاد عنها.

الكلمات التي لم تُقل

تحت الركام، لم تكن هناك فقط أجساد،

كان هناك كلمات... ملايين منها، لم تُنطق.

"أحبكِ يا معلمتي"

"سامحني يا وجعي"

"انتظريني، سأعود"

"لا تنامي قبل أن نتصالح"

"أخبرها أنني ما زلت أكتب لها..."

صوت الركام أعلى من صوت الندم.

لكنّني ما زلت أسمع تلك الكلمات،

في الليل... حين يسكن كل شيء،

تنهض الكلمات من تحت الأنقاض... وتبكينا.

صورة في جيب معطف

وجدت صورة مطويّة في جيب معطف قديم علق على باب غرفة مهشّمة،

رجل يبتسم وهو يحتضن طفلة بعينين واسعتين،

يداعبها بلحيته ، حفيدته بين يديه،

من شدّة التصاقها به، لم أُفرّق من منهما كان يحمل الآخر.

كانت الصورة باهتة، لكنّ الحبّ فيها لم يبهت.

كان واضحًا كما لو أنه لا يزال حيًا،

يطلب من العالم أن يمنحه فرصة أخيرة ليقول:

"ابقِ يديك حولي، لا تتركني وحدي."

المعطف خاوٍ، والبيت خاوٍ،

لكن الصورة كانت مليئة بالحياة أكثر من أيّ شارع حولها.

مرآة على حافة السقوط

حين دخلت إلى ما تبقّى من الحمّام،

كانت المرآة معلّقة بزاوية مكسورة، تميل ببطء كأنها تفكّر في الانتحار.

نظرتُ فيها، رأيتُ وجهي مليئًا بالغبار،

لكن خلفي، كانت تلمح وجهًا آخر... لم يكن أحد هناك.

ربما هو انعكاس الذاكرة، أو شبح أحبتي، أو ظلّ دميتي القديمة.

المرآة لا تكذب، لكنها أحيانًا تقول الحقيقة بطريقة لا نحتملها.

المرآة التي بقيت بعد الركام، لم تنكسر... لكنها انكسرت في داخلي.

الراديو الصامت

رأيت راديو صغيرًا، متسخًا، مُغطى بالرماد،

كان مائلاً في الزاوية كأنه استراح بعد بثّ آخر خبر.

كنا نفتح الراديو كل صباح،

نسمع صوت مذيع لا نعرفه، يخبرنا أن كل شيء سيكون بخير.

نضحك، نكذّبه، ثم ننتظره من جديد.

الراديو الآن صامت، لكنه يقول أكثر مما قال حين كان يعمل.

الصمت بعد الفقد... أعلى من كل النشرات.

فستان العيد

بين الركام، رأيت قماشًا ورديًا يخرج من حقيبة محطّمة.

كان فستان عيد، جديد، لم يُلبس بعد.

ربما كانت الطفلة تختاره بحماس،

وربما كانت الأم تخيطه بخيط دافئ من الحنان.

اقتربتُ، رفعته بيدي المرتجفتين...

كان صغيرًا جدًا، رقيقًا جدًا،

كأنّه لم يُخلق للنجاة في هذا العالم.

بعض الأشياء لا تُرتدى... بل تُدفن بكامل أناقتها،

ويبقى العيد مؤجّلاً إلى أجل لا نعرفه.

بقايا درس أخير

وجدتُ دفترًا مفتوحًا على طاولة مكسورة،

فيه خطّ طفوليّ يكتب: "الضمير المستتر تقديره هو."

تحتها رسم قلب، ثم كلمة: "أشتاق."

تصفّحت الصفحات الأخرى،

كان فيها حبرٌ حيّ، وعبارات غير مكتملة، وكلمة واحدة مكتوبة بخطّ كبير:

"بابا، لا تتأخّر."

لم أستطع إكمال القراءة.

أغلقتُ الدفتر كما يُغلق باب قبر... ببطء، وحذر، ودمع.

أسماء منسية

على أحد الجدران المنهارة، رأيت أسماء مكتوبة بالفحم:

"شام ، عمر، عبد الرحمان، نور".

تحتها قلب، وسهم، وضحكة مرسومة برعشة يد.

تأملت الأسماء طويلاً...

كأنني أعرفهم، أو أنني كنت يومًا واحدًا منهم.

ربما كانوا أصدقاء في الحارة،

وربما كتبوا أسماءهم قبل أن يتعلّموا كيف يقولون: وداعًا.

كل الأسماء ذابت في الغبار،

لكن قلبي حفظها، كأنّها آخر ما يجب ألا يُنسى.

الناجون ليسوا دائمًا أحياء

خرجنا من تحت الركام، نعم.

مشينا على أرجلنا، تنفسنا، نظرنا إلى السماء...

لكن شيئًا فينا لم يخرج.

شيء بقي هناك، عالقًا بين الحديد والنار والصرخات.

النجاة ليست حياة،

النجاة أحيانًا جرح طويل، نتعلم كيف نلبسه كل يوم،

ونقول: "أنا بخير"،

لكنّنا نقصد: "أنا مكسور بطريقة لا تُرى."

الكنبة الخالية

في منتصف ما تبقّى من الصالة،

كانت كنبة قديمة، خالية، متسخة، تغوص رجلها اليمنى في التراب.

تلك التي كنا نتحلق حولها، نضحك ونشاهد الأفلام القديمة.

جلستُ فوقها... فشعرت أنها لا تحتملني.

كأنها تئن من غياب الأجساد التي اعتادت أن تتكئ عليها.

بعض الأماكن تشبه الثكلى،

تفقد من كانوا فيها، وتبقى في انتظار لا أحد يأتي.

من كان يوقظ الضوء؟

كانت المصابيح في بيتنا تُضاء في التوقيت ذاته كل ليلة.

لا أحد كان يُشعلها... لكنها كانت تضيء،

وكأنّ الحنين له يد خفيّة يعرف مفاتيح الكهرباء.

اليوم عدتُ، ولم يضئ شيء.

كأن النور نفسه خاف من العودة.

من كان يُوقظ الضوء؟

من كان يجعل الحياة تبدو بسيطة حتى وسط العتمة؟

أين ذهبوا... ولماذا لم يأخذونا معهم؟

البيانو الذي كتم صوته

رأيت بيانو مغطى بطبقة كثيفة من الغبار،

مفاتيحه مكسورة، وصوته مدفون تحت الحجارة.

كان الطفل يعزف عليه كل مساء،

وكنّا نضحك كلما أخطأ، ونصفّق كلما أتقن لحنًا بسيطًا.

حاولتُ أن ألمس مفتاحًا... لم يصدر صوتًا.

كأن البيانو حزن على صاحبه، فقرر أن يصمت إلى الأبد.

بعض الآلات تموت من الحزن،

كما تموت الطيور حين تفقد أغنيتها الأخيرة.

ما بعد النجاة

حين نخرج أحياء، لكن بشيء ناقص لا يُرمّم.

نحن الذين مشينا وحدنا

في اللحظة التي انقشع فيها الدخان،
لم نركض فرحًا، لم نضحك، لم نُصفّق.
نظرنا خلفنا طويلاً... ثم مشينا.
لم يكن هناك من يُمسك أيدينا،
كنا نجرّ أقدامنا على أرض باردة،
نتعلّم كيف نعيش دون أن نكون أحياء فعلاً.
نحن الذين مشينا وحدنا...
عرفنا أن النجاة ليست خفيفة،
بل أثقل ما نحمله إلى آخر العمر.

متحف داخلي

في داخلي متحف لا يراه أحد،

أعلّق فيه اللحظات مثل الصور،

أضع تحت كل واحدة وصفًا صغيرًا:

"هنا ضحكنا"، "هنا صمتنا"، "هنا فارقنا."

يمرّ الناس بي، يظنونني هادئة،

لكنهم لا يسمعون ضجيج زوّاري الداخليين.

كل ذكرى تزورني بلا موعد،

تلمسني كأنها لم تغب يومًا،

وتتركني واقفةً كحارس متحف وحيد.

النجاة المتعبة

من قال إن النجاة راحة؟

نحن لم نُرمَ خارج الجحيم، بل حُمِلنا منه ببطء،

وتركنا على أطراف الحياة نتساءل: وماذا بعد؟

أجسادنا تسير، وقلوبنا تمشي بتأخير.

نتكلم، نأكل، نبتسم،

لكن شيئًا فينا لا يصدق أننا ما زلنا هنا.

النجاة ليست هدية،

بل سؤال مفتوح نُجيب عنه كل صباح ونحن نرتجف.

في المساء، نضع الوجوه

نحن نعرف كيف نُخفي،

نضع وجوهًا مرتبة في المساء،

نبتسم لمن حولنا، نحمل القهوة، ونقول: "كل شيء بخير."

لكن حين نُطفئ الضوء،

تظهر وجوهنا الحقيقية...

وجه الهدوء التي لم تعد، وجه الطفل الذي لم يُدفن، وجهنا الذي لم نعد نعرفه.

لا أحد ينام بنقاء،

نحن فقط نُخفي الحطام تحت الوسائد.

قلوب مهجّرة

لسنا فقط من خسروا البيوت،

خسرنا أماكن في قلوب الآخرين.

كأن العالم أعاد ترتيب محبّيه،

ولم نكن في القائمة.

قلوبنا الآن مهجّرة،

تبحث عن دفء لا يُشترى، وعن أسماء لا تُنسى.

نمشي بين الناس كما لو أننا غرباء على خارطة لم نعترف بها.

التهجير لا يحدث في المكان فقط،

بل يحدث في القلب أولاً.

صمت لا يُترجم

هناك نوع من الصمت...

لا يُترجم إلى كلمات،

ولا يُفسَّر بالبكاء.

إنه الصمت الذي يجلس بجانبك على السرير،

ويحدّق معك في السقف،

ولا يقول شيئًا...

لكنه يضغط على قلبك كأنه يعتذر عن كل ما لم يحدث كما أردت.

هذا الصمت،

هو الذي يخبرك أن النجاة أحيانًا خسارة طويلة الأمد.

الحنين يوجع أكثر بعد النجاة

في قلب العاصفة، كنت أتمسك بالنجاة.

لكن حين خرجتُ...

اكتشفت أن الحنين أقسى من الألم.

أحنّ إلى الأيام التي لم تكن مثالية،

لكنّ فيها ضحكة الطفولة، ورائحة الخبز،

وصوت الطائر وهو يناديني من الشرفة.

أشتاق إلى ما كنت أملكه ولم أكن أراه.

وكلما اقتربت النجاة...

ابتعدت عني أشياء كنت أظنها ستبقى.

بيننا وبين الحياة حائط زجاجي

نعيش الحياة، نعم،

لكن من خلف زجاجٍ...

نراها، نلمحها، نرغبها،

لكن لا نلمسها فعلاً.

نبتسم مثل الآخرين،

لكن ضحكتنا تتكسر على الجدار،

لا تصل إلى القلب.

هذا الحائط ليس مصنوعًا من شيء حقيقي،

لكنه موجود.

شعورك بأنك في الخارج، حتى وأنت في الداخل...

هو أكثر ما يجعل الحياة ثقيلة.

ملابس النجاة

لم نُشفَ، نحن فقط غيّرنا ملابسنا.

ارتدينا أقمصة نظيفة، وربطات عنق، وابتسامات.

لكننا ما زلنا نحمل الجرح تحت القماش.

الناس قالوا: "لقد نجوتم!"

لكنهم لم يروا العيون التي لم تنم،

والكلمات التي اختنقت،

والأسماء التي لم نعد نذكرها دون أن نبكي داخليًا.

نجونا... لكن داخلنا لا يزال يرتدي ملابس ذلك اليوم.

هل للنجاة تاريخ صلاحية؟

كل شيء في هذا العالم له تاريخ انتهاء...

حتى النجاة.

في اليوم الأول، تكون ممتنًا،

في اليوم الخامس، تبدأ تتساءل،

وفي اليوم الخمسين... تبدأ تتألم.

لأنك تنجو، لكنك لا تُشفى.

وتكتشف أن النجاة لا تعني أنك بخير،

بل تعني أنك ببساطة... لم تمت بعد.

العُمر الذي لم نعشه

نحن أكبر من أعمارنا...

ولسنا كما نظنّ.

طفولتنا انتهت دون أن نودّعها،

وشبابنا تشكّل من الصمت، من فقدٍ لا يُروى،

ومن نضجٍ جاء في غير أوانه.

نجونا، نعم...

لكننا خسرنا العُمر الذي كنا سنعيشه لو لم يحدث ما حدث.

صرنا كبارًا رغمًا عنّا...

وكلما ضحكنا، ظهر في أعيننا ظلّ سؤال قديم:

"كم كنّا سنكون لو لم ننشظَّ؟"

لغة النجاة

نحن نتحدث لغة لا يفهمها الآخرون.

كلماتنا ثقيلة، وإن كانت خفيفة في ظاهرها.

نمزح، ونضحك، ونروي الحكايات...

لكن ما بين السطور، هناك وجعٌ لا يُقرأ.

الناجون لا يتحدثون كثيرًا عن نجاتهم.

بل يسكتون كي لا يفسدوا صمتهم بالشرح.

الذين لم يمرّوا بالنار،

لن يفهموا الرماد الذي نحمله على أكتافنا كل صباح.

من بكى في الداخل

النجاة ليست فقط فيمن صمد،

بل فيمن صرخ بصمت،

وبكى داخله ألف مرة ولم يُرَ له دمعةٌ.

فيمن مشى وهو ينهار،

وفيمن قال: "أنا بخير"،

وفي قلبه حربٌ لم ينجُ منها بعد.

بعضنا نجا لأنه اضطر،

لأنه لا يملك خيارًا آخر...

ولأن البكاء كان ترفًا لا يليق بمن يُطارده الألم.

نحن لا نُشفى، بل نُكمل

لا تظن أن الأيام تُداوي،

هي فقط تُلبسنا قشرة ناعمة تُخفي ما تحته.

نضحك، نعم،

لكن هناك جرحًا نائمًا تحت الجلد،

ينبض عند أول لمسة، أو ذكرى، أو اسمٍ يشبه الغائبين.

نحن لا نُشفى فعليًا...

بل نكمل... نمشي... ونضع الجراح في جيوبنا

كأنها أشياء خفيفة، وهي أثقل ما نملك.

في الطرف الآخر من الجسر

حين خرجنا من النار، لم نجد أنفسنا في الجنّة،

بل على طرف جسر طويل...

جسرٌ بين ما كنّا، وما يجب أن نكونه الآن.

على هذا الجسر نتعلّم:

كيف نُصادق الوحدة، كيف نبتسم بعد فقد،

كيف نزرع أحلامًا في أرضٍ لم نعهدها.

نحن لا نعيش ما بعد النجاة،

بل نعيد اختراع الحياة من الصفر،

ونرجو أن نصل يومًا إلى ضفةٍ نشعر فيها بأننا لا نرتجف.

المَدى البعيد

لم نعد نرى الوطن كما كنا نراه،

كان قريبًا من العين... والآن بات هو القلب بعيداً عن النظر.

ننظر من الشرفات الغريبة،

فلا نجد سوى المدى،

ولا في المدى سوى السؤال:

هل نعود يومًا؟

أم أننا نكبر في غربةٍ لا نهاية لها، ونُنسى في صمتها الطويل؟

الغربة لا تبدأ حين نرحل،

بل حين لا يعود أحد ليسأل: كيف أنتم؟ وكيف تمرّ الليالي دون وطن؟

جدران مدرستي

كنت أظن أن الجدران تحفظ الوجوه،

أن الطباشير لا يُمحى،

و المعلمات لا تُنسى،

أن صدى الضحك يبقى في الممرات...

لكن حين عُدت، لم أجد شيئًا كما تركته.

المدرسة بقيت، لكنّي لم أعدُ أنا.

والأصوات التي أعرفها صمتت،

والأسماء التي كانت تُنادى... لم تُكتب من جديد.

الغربة ليست فقط مكانًا،

إنها لحظة تدرك فيها أن المكان الذي أحببته... لم يعد يحبك.

صدى الخطوات

في الطرقات الجديدة...

نحن غرباء حتى عن أصوات أقدامنا.

نمشي بخطى مرتبة، وكأننا نعرف إلى أين نذهب،

لكن الحقيقة أننا نبحث عن أنفسنا في كل زاوية،

في كل ناصية لا تشبه شيئًا من ذاكرتنا.

هل سمعتم يومًا صدى خطوات الحنين؟

إنه ليس صدى الأقدام... بل صدى الروح التي تمشي وهي تتلفّت للخلف كل لحظة.

بين لهجتين

ما أقسى أن تضطر لتبديل لهجتك كي تُفهم...

أن تُخفي مفرداتك كي لا يُقال عنك "غريب".

الغربة لا تسكن في الجغرافيا،

بل في الكلمات التي تتلعثم في فمك حين تحاول أن تبدو طبيعيًا.

نصير غرباء في نُطقنا،

غرباء في صمتنا،

غرباء حتى عن أنفسنا القديمة.

ونُدرك بعد زمن... أن من لا يتكلم بلهجته، يفقد شيئًا من نفسه في كل حرفٍ مستعار.

هذا البيت ليس بيتي

له باب، ونوافذ، وسقفٌ يحمي،

لكنّه ليس بيتي...

لا تفوح فيه رائحة المخبوزات،

ولا يُشبه أصوات إخوتي حين يتعاركون على التلفاز،

ولا يُخبئ في زواياه ضحك العيد ولا خيالات طفولتي.

هو مجرد مكان ننام فيه،

نأكله، نغسله، ونغادره ...

بينما يأكلنا...

أما البيت الحقيقي، فهو ذاك الذي لا يزال في الذاكرة،

حتى وإن تهدّم في الواقع.

حقيبة العمر

لم تكن حقيبة سفر...

كانت كل حياتي مطوية بعناية بين طيّاتها.

ثيابي؟ لا تعني شيئًا.

لكن الرسالة التي كتبتها لصديقتي ولم أرسلها،

الصورة الباهتة لجدتي،

الدفتر الصغير الذي رسمت فيه أحلامي الأولى...

كلها كانت هناك.

في كل مرة أفتح الحقيبة،

أشعر أنني أفتح جرحًا لا يُغلق.

فمنذ أن رحلت... لم أعد أُغلق الحقيبة تمامًا،

ربما بانتظار عودة،

أو حنينٍ يطلب دفء الأشياء القديمة.

الوجوه المتشابهة

في الغربة، كل الوجوه متشابهة...

لا لأنهم يشبهون بعضهم،

بل لأنهم لا يُشبهون أحدًا من ذاكرتك.

تمرّ بين الناس فلا تُصادف رائحة الأُلفة،

ولا عيني صديقك القديم،

ولا ابتسامة الجارة التي كانت تُطعمك الخبز الساخن على العتبة.

هنا... الغرباء كثيرون،

لكن وحدك، وحدك تشعر أنك لا تنتمي لهذا الزحام.

أسماءنا في فم الغربة

هل سمعتم يومًا كيف يُنطق اسمك بلغتهم؟

كأنه شيء غريب، أو مُحرّف...

كأنهم يُجربونه لا ينادونك.

تُدرك حينها أن اسمك غريب هنا،

تمامًا كما أنت غريب.

لكننا لا نتنازل،

نتمسك بأسمائنا كما نتمسك بوطنٍ غائب،

فنقولها بوضوح،

ونُصِرّ أن تُقال كما يجب.

فأسماؤنا آخر ما تبقى لنا من الوطن.

الغربة تُعلّمنا النضج بالقسوة

لم نكبر لأننا أردنا أن نكبر،

بل كبرنا لأننا لم نجد خيارًا آخر.

كأننا قُذفنا في بحرٍ بلا أطواق نجاة،

فكان لا بدّ أن نسبح... أو نغرق.

تعلمنا أن نُخفي دموعنا كي لا يُقال إننا ضعفاء،

أن نبتسم رغم الكسر،

أن نُكمل الدراسة بلغة لا تُشبه أرواحنا...

لأن النجاة في هذه البلاد لا تنتظر المتعثرين.

رسالة إلى نفسي القديمة

أكتب إليكِ يا أنا... التي لم تعرف بعدُ كيف طعم الليل في بلادٍ غريبة.

يا أنا... التي كانت تظن أن كل شيء يبقى،

وأن كل مَن نُحب، لا يتغير.

لا أحد أخبرك أن البيوت تُنسى،

وأن الخبز الساخن له نكهة أخرى حين لا تشتريه من يد جدتك.

ولا أحد حذّرك أن اللغة قد تذبل على لسانك،

إن لم تُروِها كل صباح بأحاديث القلب.

لكن، رغم كل شيء،

أريدك أن تعرفي:

نجونا، ولم نضع.

”في الغربة نكبر“

وفي داخلنا وطن تحت الركام.

نوافذ لا تُطل على شيء

في بيتنا القديم، كانت النافذة تطل على السماء...

وهنا، تطل على جدارٍ صامت.

لا طيور تحلّق،

ولا شمس تُداعب الأمل،

فقط حجارة جامدة،

تشبه الشعور بالتيه.

في الغربة... حتى النوافذ تصبح عمياء،

تُفتح ولا ترى،

تتنفس ولا تشهق الحياة كما كانت.

السوق الغريب

مشيتُ في سوقهم الكبير...

كل شيء ملون، مترف، جميل،

لكنني شعرت أنني أضيع.

كنت أبحث عن صوت البائع الذي يُناديني بلهجتي،

عن الرائحة التي تعلّقت بثياب الوطن،

عن ثمرة برتقال لا تشبه البلاستيك،

وعن قطعة خبز لا تُخبز بنسيان.

كل شيء هنا يُباع...

حتى الذاكرة، لو أرادوا.

بين مرحلتين

نحن جيلٌ عالق بين مرحلتين:

جيل سمع عن الوطن من الذكريات،

وعاش الغربة كأنها البداية.

نكتب أسماء بلادنا على أطراف الدفاتر،

ونسأل أهلنا: "كيف كانت؟"،

فنحفظ القصص أكثر من حفظنا للأرقام.

نعيش بنصف قلب هناك،

ونصف هنا...

لكن لا وطن يحتوينا كاملين.

اللغة المنسيّة

كنتُ أتكلم كالجميع،

أضحك بقلبي،

أُردّد كلمات جدتي حين تغضب...

لكن شيئًا فشيئًا، بدأت الكلمات تتآكل،

تنكمش، وتذوب في لغات الآخرين.

وفي يومٍ ما، نظرتُ إلى المرآة

فلم أتعرف على لهجتي،

ولا على الطريقة التي أنطق بها اسمي.

هل الغربة تُغير الأصوات... أم تُطفئها؟

سجادة الصلاة

أفرشها كل فجر،

لكن ليس على تراب بيتي...

بل على بلاط بارد لا يحمل أي حنين.

أُصلي وأنا أُغمض عيني بقوة،

علّي أعود لحظةً إلى الغرفة التي كانت تحتضن دعائي القديم.

حتى الدعاء، صار له طعمٌ مختلف،

أكثر وجعًا،

أشد رجاءً،

وأكثر يقينًا أن ما ضاع... لا يعيده سوى الله.

أرواحٌ بلا عنوان

في هذه البلاد... لا أحد يسأل: من أين أنت؟

ولا أحد يهتمّ كيف وصلت.

كأنك روح تمشي، بلا ماضٍ، بلا جذور، بلا حكاية.

تُمسك بجوازك كأنه تعويذة،

تتحدّث بلهجة ليست لك،

وتضحك من نكات لا تُشبه بيئتك.

تتعلّم أن تخفف من لغتك،

تُقصّرها، تُبسطها، تُهذّبها...

حتى لا تُثير الريبة.

وهكذا... تكبر،

وأنت تجهل إن كنتَ ما زلتَ كما كنت.

تفاصيل ميتة

في الغربة، لا أحد يعرف ماذا يعني:

أن تشتاق لرائحة طنجرة الملوخية،

أو لصوت المياه وهي تُسكب على بلاط الحوش.

أن تبكي لأنك سمعت أغنية جدتك تغنيها قديمًا،

أو لأن الهواء لم يحمل غبار الوطن في صباحه.

كل التفاصيل هنا "مُجرّدة"،

لا تمتّ إليك بشيء.

كأن الحياة خالية من الدفء،

مهما بلغت حرارتها.

أصدقاء الممر

في ممر المدرسة، كنتُ أبتسم لهم...

ويبتسمون، لكن لا أحد يقترب.

أنا الغريب، الذي لا يفهم تعابيرهم تمامًا،

ولا يُتقن طريقتهم في اللعب.

حاولت أن أكون جزءًا،

لكنهم ظلّوا "مجموعة"، وظللتُ "أنا".

فالغربة لا تُعلّمك فقط اللغات،

بل تُعلّمك كيف تُصبح ظلاً،

يمشي على الأطراف،

ويكتم اسمه كي لا يُزعج أحدًا.

لا أحد يعرف اسمي جيدًا

في وطني... كان اسمي نشيدًا.

ينادونه بمحبة، بلحنٍ أعرفه.

هنا؟

هو مجرد مقطع صعب،

لا يُنطق كما يجب، ولا يُكتب كما كان.

حتى الحروف... شعرت بالغربة.

وأنا أُكرّره في كل مكان،

كأنني أُعَرِّف بنفسي في كل مرة من جديد،

لكن لا أحد يفهم من أنا.

لم تَعُد تفهمني تمامًا

أكلمها بلغتين:

واحدة تشبهها،

وأخرى تعلمتها كي أعيش هنا.

أسرد عليها يومي،

لكنها لا تعرف ماذا يعني "وظيفة دوام مرن"،

ولا تفهم لماذا لا أزور الجيران،

أو لماذا لا أعود لبيتي بعد العصر.

بيننا لغة تشبه المطر على نافذتين مختلفتين،

نرى بعضنا، لكن لا نسمع بعضنا تمامًا.

حين يتغير شكل الدعاء

في طفولتي، كنت أدعو:

“اللهم ارزقني دراجة.”

“اللهم اجعل أبي يشتري لي حلوى.”

أما الآن، فأدعو:

“اللهم لا تجعلني أضيع في بلاد لا تعرفني.”

“اللهم لا تجعل الغربة تسرق روحي من ملامحي.”

الدعاء تغيّر...

صار أكثر صمتًا،

أكثر ألمًا،

وأقرب لدمعة لا تسقط.

لغة داخلية

أُفكر بلغتين.

أحلم بواحدة، وأتكلم بالأخرى.

أكتب رسالة لصديقتي ثم أُعيد صياغتها لتُفهم هنا.

أمزج اللهجة التي في القلب،

باللكنة التي فرضها اللسان الجديد.

لكن في داخلي،

ما زالت هناك لغة لا يتحدثها أحد سواي،

تخرج فقط حين أبكي،

أو أشتاق...

أو أكتب.

وجهي في مرآة الغربة

أنظر إلى المرآة...

ولا أُدرك إن كنت ما زلت أشبه نفسي.

عيوني كما هي،

لكن بريقها صار أقل.

بشرتي ذاتها،

لكن الشحوب سكن فيها.

في الغربة، لا تتغيّر ملامحك فجأة،

بل يتسلل التغيّر كل يوم،

دون أن تشعر،

حتى تجد أنك أصبحت شخصًا آخر... يشبهك فقط من بعيد.

احتياجٌ لا يُقال

في بعض الليالي...

أحتاج أن أُسمّى باسمي كما كانت الأحبة تناديني.

أن يُربّت أحد على ظهري دون سبب،

أن يقول لي أحدهم: "اشتقنا لك."

لكن لا أحد هنا يقول ذلك.

الجميع منشغلون بالبقاء.

والكلمات الطيّبة... تُعدّ ترفًا.

فأُغلق الباب، وأحتضن الصمت،

كأنّه صار صديقي الوحيد.

حين يُصبح الوطن ذكرى

لم أعد أذكر ملامحه تمامًا،

ولا صوت جيرانه،

ولا طريق المسجد،

ولا طعم الماء من الحنفية.

لكنّي أذكر الإحساس...

نعم، الإحساس الذي كان يغمرني حين أفتح باب البيت،

وحين أضع رأسي على وسادتي،

وأنا أعلم أني في مكاني،

في حياتي،

في عالمي.

ذلك الإحساس... لا يعود.

المسافة بيننا

بين أحبتي وبيني الآن بحارٌ وجبالٌ وحدودٌ لا تفهم الحب.

لكن أبسط ما يفصلنا... أنني حين أحتاج حضنها،

لا أستطيع أن أركض نحوها.

أكتب لها رسالة،

أُرسل لها تسجيلاً صوتيًا،

أخبرها أنني بخير،

لكنني لا أكون بخير.

المسافة بيننا ليست بالكيلومترات...

إنها في العجز،

في الحنين،

في الدموع التي لا تجد من يُمسحها.

جواز سفر

كانوا يسألونني عن جواز سفري،

فأُخرجه كمن يُخرج جُرحه.

هو وثيقة تقول إنني "موجود"،

لكنها لا تخبرهم بشيء عنّي.

لا تقول لهم أنني كنت طفلاً يركض في الأزقة،

أن لي وطنًا قُصِف،

وأحلامًا نُثرت كالغبار.

جواز سفري لا يحمل صورتي الحقيقية...

فأنا أكبر من كل أوراقي.

الرغبة في الرجوع

كلما سمعتُ كلمة "عودة"،

خفق قلبي كما لو أنه استيقظ من غيبوبة.

أحلم بها كل ليلة:

أقف على باب بيتنا،

أُقبّل الجدران،

وأصمت طويلاً، كأنني أعتذر لها لأني تأخرت.

لكن العودة،

ليست مجرد تذكرة طيران،

إنها استرجاع لذاتٍ سُرقت،

وترميم لقلب تشظّى في بلاد كثيرة.

كيف أنسى؟

يقولون: انسَ،
ابدأ من جديد.
لكن كيف يُمكن للغصن أن ينسى الجذور؟
أحمل وطني في صوتي، في صمتي،
في تصرفاتي الصغيرة،
في نظرتي حين أسمع اسم مدينة أعرفها.
النسيان خيانةٌ لما كنّا عليه،
خيانةٌ للذكريات التي شكّلتنا.
ولستُ خائنًا...
أنا فقط مُنهك من كثرة التذكّر.

العيد الأول هناك

أشرقت الشمس في الغربة،

لكنها لم تكن شمسي.

لبستُ الجديد،

لكن لم أسمع تكبيرات الحيّ،

ولا صوت أقدام إخوتي يركضون نحو العيدية.

أكلتُ الكعك،

لكن دون يد جدتي التي تنثر عليه الدعاء.

ضحكت،

لكن في قلبي شيء لم يضحك.

كان أول عيد لي هناك،

وأول عيدٍ لم أشعر فيه أنني على قيد الفرح.

لم أعُد أُشبه صوتي

في الغربة، تغيّر كل شيء... حتى صوتي.
صرت أتكلم بحذر،

أخفض نبرة الحنين،

أغيّر كلماتي كي تُفهم،

وأخفي خلف الجمل الطويلة وجعًا لا يُقال.

لم أعُد أتكلم كما كنت،

ولا أضحك من ذات الأشياء،

صوتي الذي كان يملأ البيت...

صار هامسًا،

يخشى أن يُكسر.

الحنين لا يحتاج موعدًا

لا يطرق بابك،

ولا ينتظر انتهاء العمل،

ولا يستأذن قبل أن يجلس في صدرك.

قد يباغتك وأنت تقف في محطة القطار،

حين ترى رجلاً يُقبل يد أمه،

أو طفلاً يتحدث بلغتك في السوق.

الحنين لا يحتاج إلى رائحة الوطن كي يولد...

يكفيه ظلّ أغنية قديمة،

أو خبزٌ يشبه ذاك الذي كان يُخبز في فرن بيتكم.

بيت من صمت

استأجرنا بيتًا واسعًا...

لكنّه كان أضيق من قلبنا في بلادنا.

كل الجدران ناصعة،

كل الأثاث جديد،

لكن لا رائحة فيه تشبهنا،

ولا زاوية تحفظ بكاءنا القديم.

في بلاد الغربة، البيوت تُبنى من الطوب،

لكنّ بيوتنا كانت تُبنى من دفء الأيادي...

ومن ضحكة اللحظات.

المدرسة التي لا تُشبهني

دخلتُ فصلهم،

فلم أجد علم بلادي،

ولا خريطة تُظهر شوارعنا الصغيرة،

ولا كتابًا فيه ذكر لقصتنا.

الطلاب يضحكون...

لكنني لم أفهم سبب الضحك.

المعلّمة تشرح،

لكن صوتها يمرّ بي كأني لست هنا.

كنت حاضرًا، نعم،

لكنني لم أنتمِ.

مدرستهم لم تكن مدرستي...

وأنا لم أعد كما كنتُ تلميذًا في حضن الوطن.

السؤال الذي يُوجِع

“من أين أنت؟”

سؤال بسيط، يُقال بابتسامة،

لكنّه يوقظ فيك حربًا من الذكريات.

هل أقول من البلد التي خرجتُ منها؟

أم من المدينة التي لم أُولد فيها لكنني كبرتُ فيها؟

أم من هذه البلاد التي تعلّمت فيها النجاة بالصمت؟

أحيانًا، أُجيب: “أنا من هناك...”

وأصمت.

وأحيانًا، لا أُجيب.

لأنني لا أملك بعد وطنًا يُعرّفني.

فقط الذي هُجرِتُ منه .

لكنني لم أهجره قط.

النُطق الصعب

أنطق اسم شارعي الجديد كل صباح،

وأشعر وكأن لساني يرفضه.

غريبٌ هو، لا يُشبه أسماء شوارعنا...

لا يحمل طيف جدي،

ولا ظلّ طفولتي.

أحيانًا، أُخطئ في النُطق،

فينظرون إليّ وكأني دخيل.

لكنني، والله،

أحمل في لغتي ما لا تحمله خرائطهم كلها.

أخاف أن أعتاد

في البدء، كنت أعدّ الأيام التي قضيتها هنا.

أُعلّق الصور كي لا أنسى شكل بيتي.

أكتب رسائل لكل من تركتهم خلفي.

لكن اليوم،

لم أعد أعدّ شيئًا.

وأخاف.

أخاف أن أعتاد الغربة،

أن يصبح الألم عاديًا،

أن يصبح الاشتياق خلفي،

أن أنسى كيف كنتُ أحنّ.

لا أحد يعرف اسمي الكامل

في دفاتر المدرسة، اسمي ناقص.

في المستشفى، يخطئون في لفظه.

وفي الأماكن العامة، أُصبح "أنت"،

وليس أبرار.

اسمي الذي كان يُنادى بحنان،

صار كلمة غريبة،

لا أحد يلفظها كما نطقتها أمي أول مرة.

في الغربة، حتى الأسماء تهاجر...

وتضيع ملامحها في أفواهٍ لا تعرف القصص التي خلفها.

بين لهجتين

لهجتي الأصلية تفضحني،

فتهمس لي الغربة: "تكلّمي كواحدة منا."

أُحاول،

أتقن الكلمات الجديدة،

أُغيّر نبرتي،

وأخفي الضاد خلف السين.

لكن حين أغضب،

حين أحنّ،

حين أدعو...

تعود لهجتي الأصلية دون إذن،

تعود كما تعود الروح للنبض.

لم يكن هذا حلمي

حين كنت صغيرة،

كنتُ أظن الغربة رحلة...

نعود منها محمّلين بالهدايا والضحك.

لم أكن أعلم أنها ستسرق الطفولة،

وتزرع الشيب مبكرًا،

وتُعلّمني معنى التكيّف بدل الأمل.

لم أكن أحلم بمدن كثيرة،

كنتُ فقط أريد أن أبقى في مكاني،

حيث يعرفني الناس دون أن أشرح،

ويفهمني الطريق حين أمشي فيه باكيًا.

"الذين لم يعودوا"

من رحلوا، من تغيّروا، من تخلّوا، ومن ماتوا في قلوبنا قبل أجسادهم.

المقعد الفارغ

في كل بيت، هناك مقعدٌ لا يُشبه سائر المقاعد.

ليس لأنه أنيق،

ولا لأنه مريح،

بل لأنه كان لأحدهم... ورحل.

ذلك المقعد لا نُغيّره،

ولا نضع عليه شيئًا،

نتركه كما هو،

كأننا نُبقي له مكانًا في الحياة،

ولو أنه صار في مكانٍ لا نراه.

تغيّروا كثيرًا

كانوا يشاركوننا الخبز،

الضحكات،

والخطط التي لن ننفذها.

ثم، فجأة...

صاروا غرباءَ بأسمائنا،

يتحدثون كأنهم لم يبكوا معنا من قبل.

لم يموتوا،

لكن شيئًا منهم مات فينا،

وحين يعودون في الذاكرة،

لا يعود معهم الدفء.

الذين تخلّوا

كانوا يقولون: "نحن معكم مهما حصل."

وحين حصل كل شيء...

لم نجدهم.

الغريب أن قسوة الغياب ليست في أن يتركوك،

بل في أن تعرف أنهم لم يُحاولوا البقاء أصلاً.

التخلي لا يُوجع لأنك فقدت أحدًا،

بل لأنك اكتشفت كم كنت وحدك وأنت لا تعلم.

موتٌ مؤجل

بعض الغياب لا يُشبه الموت،

إنه أشدّ.

لأن من رحل عن الحياة،

نُسلّم لغيابه، ونبكيه بوضوح.

لكن من بقي حيًّا،

واختار ألا يعود،

فهو يرحل كل يوم فينا مرة،

ويقتلنا دون أن يُحاسَب.

أعياد بلاهم

تأتي الأعياد،

فنُجهّز الكعك،

لكن لا نسمع ضحكتهم.

نفتح الهاتف لنُرسل التهاني،

ثم نتذكر أنهم لم يعودوا هناك...

ولا هنا.

يمر العيد كضيف ثقيل،

يجلس في القلب،

ويذكّرنا بكل من غاب،

وكأن العيد نفسه صار باكيًا.

رائحة من رحلوا

بقي في الخزانة قميصه،

وفي الزاوية عباءتها،

وفي هواء الغرفة رائحة من كانوا هنا يومًا.

الغريب أن الرائحة أقسى من الذكرى،

لأنها تطرق أنفك فجأة،

فتعيدك إلى حضنٍ لم تعُد تملكه،

وإلى دفءٍ لم يَعُد موجودًا إلا في قلبك.

حتى الصور خذلتنا

فتحنا الألبوم ذات مساء،

نبحث عنهم في الوجوه،

لكن الزمن خدش الملامح...

بهتَت الضحكات،

وغابت العيون التي كنا نحفظها عن ظهر قلب.

حتى الصور تتغيّر،

تخون وضوحها،

وتُشبهنا في أننا لا نعرف أين نضع الحنين كي لا ينكسر.

رسائل لم تُرسل

كتبنا لهم رسائل كثيرة،

لكننا لم نُرسلها.

لأننا نعرف... أنهم لن يردّوا.

كتبناها لأن الكتابة وسيلة نجاة،

لأن الورق يسمع،

ولا يُطالبنا بنسيان أحد.

كل رسالة كانت محاولة للنجاة من الغرق فيهم،

لكننا كنا نغرق أكثر.

الأحياء في المقابر

في المقابر،

توجد قلوب كثيرة ما زالت تنبض...

لكنها مدفونة داخلنا،

لا تُرى.

هم لم يموتوا،

لكننا دفنّا ذكراهم كي لا تنهشنا الحياة.

نحن لا نزورهم بالحجارة...

نحن نحملهم في خطواتنا،

في نظراتنا،

في الدمع الذي لا نسمح له بالسقوط.

لم يعودوا... لكنهم بقوا

هم لا ينامون في بيوتنا،

لكن أرواحهم تسكن الوسائد.

لا يجلسون معنا على الطاولة،

لكننا نترك أماكنهم فارغة احترامًا.

لم يعودوا... نعم،

لكنهم باقون في ضحكة مفاجئة،

في كلمة لا تُقال إلا بذكراهم،

وفي دعاءٍ لا ننساه حتى ونحن ننسى أنفسنا.

“حين ننجو”

التأقلم، النجاة، الثمن الباهظ، والذين صمدوا دون أن يبكوا...

ليس كما كنتُ

نجوت،

لكنني لم أعد كما كنت.

ما زلتُ أضحك،

لكن ضحكتي تجرُّ خلفها مئة تنهيدة صامتة.

أُحبّ الحياة،

لكن بحذر... وكأني أعتذر منها.

النجاة لا تعني أنك بخير،

بل تعني أنك ما زلت تمشي،

ولو بقلبٍ لم يلتئم بعد.

بلا تصفيق

لا أحد صفق لي حين نجوت.

لم يُرفع اسمي،

لم تُكتب القصائد عن صمودي.

لكني صمدت.

جلستُ مع دموعي حتى نامت،

مشيتُ على قلقي حتى تعبت قدماي.

النجاة الحقيقية لا تكون أمام الكاميرات،

بل في العتمة...

حين لا يراك أحد،

وتختار أن تُكمل رغم كل شيء.

كل هذا لأني قررت العيش

أحيانًا أُفكر...

كم حربًا خضتُ فقط لأفتح عيني كل صباح؟

كم مرة متُّ ولم أنتبه؟

كم مرة قلت "أنا بخير" وأنا على وشك الانهيار؟

كل هذا... فقط لأني قررت أن أعيش،

أن لا أستسلم،

أن أُكمِل الطريق الذي لا أراه.

وهذا القرار وحده...

كافٍ لأقول: أنا بطلة قصتي.

النجاة الباهظة

كلفتني النجاة أشياء كثيرة:

صوتي في بعض الأماكن،

ثقتي ببعض الوجوه،

جزءًا من براءتي،

وطمأنينة لا تُشترى.

خرجتُ من الحريق،

لكنّي أُدرك أن الرماد ما زال يرافقني.

ومع هذا،

سأُكمل،

وسأُحاول أن أزرع زهرةً فوق الركام.

لم أبكِ... لكنني احترقت

لم أبكِ،

لا لأنني قوية،

بل لأنني جففتُ دموعي قبل أن تسقط.

كان كل شيء يحترق داخلي،

وأنا أبتسم،

كأن النجاة تتطلّب أن أبدو بخير مهما حدث.

بعض النجاة لا يُحتفل بها،

لأنها تأتي بعد معركةٍ طويلةٍ جدًا،

نُفضّل بعدها أن ننام بدل أن نحكي.

لا شيء كما كان

كل شيء تغيّر بعد أن نجونا...

الأحاديث صارت أقل،

الضحكات صارت قصيرة،

وحتى الحب،

صار بحذر.

ننجو، نعم،

لكننا لا نعود كما كنا.

كل نجاة تترك فينا شيئًا مكسورًا،

ونمشي ونحن نحمله... كأثر جرحٍ قديم.

هدوء ما بعد النجاة

هدوءٌ غريبٌ يسكنني الآن،
هدوءٌ ليس سلامًا،
بل استسلامًا جميلاً للحياة.
كأنني تصالحتُ مع حزني،
ومددتُ له يدي...
فجلس إلى جانبي لا يؤذيني.
هذا الهدوء هو ما تبقى من عاصفتي،
هو الطريقة التي أقول بها:
"نجوتُ... ولن أقاتل بعد الآن."

لا أشتهي شيئًا

بعد كل ما حدث،

لم أعد أشتهي شيئًا من هذه الدنيا.

لا السفر،

ولا المال،

ولا الشهرة.

أشتهي فقط أن أفتح نافذتي كل صباح،

وأشعر أنني لست مُهددة،

أن لا أُجبر على الرحيل مجددًا،

أن لا أفقد من أحب،

ولا أعيش فقدانًا جديدًا.

أحببتُ القليل

بعد كل فقدٍ عشته،

صرتُ أُحب القليل.

القهوة التي لا ينقصها شيء،

الرسالة التي تصل دون انتظار،

البيت الدافئ في ليلة ممطرة،

والأشخاص الذين لا يتغيرون.

نجوتُ،

فصرتُ أرى الحياة بميزانٍ مختلف،

وأُحب التفاصيل الصغيرة كأنها الحياة كلها.

كبرتُ فجأة

لم أعد تلك الفتاة التي تُصدّق الجميع.

كبرت...

ولم يكن الكبر بالعمر، بل بالألم.

صارت خطواتي أثقل،

وعيناي تفهمان ما لا يُقال.

صار قلبي ينسحب بصمت،

ويحب من بعيد،

ويخاف من كل وداعٍ محتمل.

كبرت فجأة...

حين رأيت العالم بلا تجميل،

فأحببتُ البقاء حيّة... لكن بهدوء.

لا أحد يعلم

لا أحد يعلم كيف نجوت،

كيف كنتُ أُجاهد كي أبدو بخير،

وأنا أغرق من الداخل.

لا أحد يعلم كم مرة قلتُ "أنا قوية"

فقط لأقنع نفسي،

لا لأقنع العالم.

أحيانًا، النجاة ليست بطولة...

بل خيار أخير لمن لا يملك خيارًا آخر.

أن تعيش بعد كل هذا

أن تستيقظ كل يوم رغم التعب،

أن تبتسم رغم الغصّة،

أن تحب الحياة بعد أن خانتك...

هذه ليست أشياء عادية،

هذه بطولات لا تُرى،

ولا تُدوَّن في الكتب.

أن تعيش بعد كل هذا...

أمر يستحق أن تُربّت على كتفك لأجله كل يوم.

النضج المرّ

كبرتُ...

لا من العمر، بل من التجربةِ.

من ليالٍ بكيتُ فيها وحدي،

من مواقف لم أجد فيها أحدًا،

من خساراتٍ علّمتني كيف أُحب نفسي أوّلاً.

النضج ليس حلوًا دائمًا،

بل مؤلم...

لكنّه يفتح عينيك على نفسك،

ويجعلك تختار من يستحقك.

نحن الذين لم نُصفق لأنفسنا

كم مرة أنقذنا أنفسنا بصمت،

وقفنا من السقوط دون أن يرانا أحد،

أعدنا ترتيب فوضانا الداخلية

دون أن نطلب المساعدة.

نحن الذين لم نُصفق لأنفسنا،

ولا انتبه أحد لبطولاتنا الصغيرة.

لكننا نعرف...

ونكفي أنفسنا بالرضا.

نجونا... لكننا تغيرنا

نجونا،

لكن أصواتنا صارت أخفض.

نظراتنا صارت أعمق،

قلوبنا صارت تتأنّى في التعلّق،

وتخاف من البدايات الجميلة.

نجونا،

لكننا تغيرنا كثيرًا...

صرنا نُحب بحدود،

ونغادر بصمت،

ولا نعود كما كنّا أبدًا.

أعبرني برفق

كلّما مررتُ أمام مرآتي،
أُشاهد امرأة لم أعهدها من قبل،
تحمل في ملامحها بقايا حزنٍ قديم،
وفي عينيها أسئلة لا إجابات لها.
أعبرني برفق،
فأنا ما زلتُ أرمّم داخلي،
وأعيد ترتيب ما تبقّى مني بعد العاصفة.

عن أولئك الذين لم يسألوا

نجونا لأننا لم ننتظر أحدًا.

لم يسأل عنا كثيرون،

ولم يسأل أحد:

"كيف قلبك؟ كيف نومك؟ كيف تحملتَ كل هذا؟"

ولأن الأسئلة لم تأتِ،

أجابت أرواحنا وحدها،

وكتبت على جدرانها:

"أنقذتك بنفسي، فكن ممتنًّا لي."

لا زلتُ هنا

رغم كل ما فُقد،

رغم كل ما تغيّر،

رغم الطرق التي لم تؤدِ إلى شيء...

أنا لا زلتُ هنا.

أتنفس،

أحلم،

أبتسم حينًا، وأصمت حينًا آخر.

نجاتي ليست نصرًا خارقًا،

لكنها وجودي رغم كل احتمالات الغياب.

ما لا يُقال

بعض الأوجاعِ لا تُحكى،

لأنـها أعمق من الكلمات،

أثقل من الشرح،

وأكثر صدقًا حين تبقى صامتة.

ننجو أحيانًا بالصمت،

بترك الجرح كما هو،

والاكتفاء بأننا على قيد النجاة.

لستُ كاملة... لكنني صامدة

ربما أنا لستُ كما يظنّون،

لستُ متماسكة دائمًا،

ولا قوية في كل اللحظات.

لكنني لم أهرب،

لم أتنازل عن نفسي،

لم أختر العتمة حين كان النور متعبًا.

أنا لستُ كاملة...

لكنني ما زلتُ واقفة.

"لكننا فقدنا شيئًا"

الحنين الخفي، الشوق الذي لا يُقال، العُقد التي لم تُحلّ،
والأشياء التي فُقدت في الطريق...

ثم مضى كل شيء

كأن الحياة أخذت شيئًا من قلبي ومضت،

لم أعد أركض خلف الأحلام كما كنت،

ولا أُعلّق قلبي بالأمنيات الطازجة.

كل شيء يمضي...

الصوت، الضوء، الملامح، الأسماء،

حتى الذكريات الجميلة تُصبح باهتة.

نجونا نعم،

لكننا فقدنا ذلك الحماس الأول،

تلك النّبرة التي كانت تضيء في حديثنا.

نُحب بصمت

كأن ما في قلوبنا أصبح لا يُقال،

نُحب، نشتاق، نغضب، نغفر...

لكننا لا نبوح بشيء.

علّمتنا الحياة أن نُخفي ما يوجعنا،

أن نكتم الطيب خوفًا من الخذلان،

أن نُراقب من بعيد... بدلاً من الاقتراب.

نجونا من الانكسار،

لكننا فقدنا القدرة على البوح.

شيء في داخلي لم يشفى

مهما كتبت،

ومهما تحدّثت،

هناك شيء في داخلي... لم يشفى بعد.

جرح صغير في زاوية القلب،

ربما من كلمة قيلت في لحظة ضعف،

أو موقف لم أنله فيه حقي.

هذا الجرح لا يبكيني،

لكنه يمنعني من الضحك كاملاً.

الوعود التي لم نعد نُصدقها

مررنا بالكثير،

حتى صرنا لا نثق كثيرًا في البدايات،

ولا ننتظر أحدًا،

ولا نُراهن على الوعود.

صرنا نبتسم ونُدير ظهورنا،

لا لِقلّة الوفاء،

بل لأن قلوبنا شبعت من الانتظار.

نجونا من الأحلام المؤجلة،

لكننا فقدنا ذاك الشغف الذي كان فينا.

كيف كنتُ أحب الحياة!

أتذكّر نفسي قديمًا...

كنت أركض خلف الفراشات،

أبكي إن سقطت زهرة من مزهريتي،

وأُغنّي للحياة كل صباح.

أما الآن...

فأنا أتأمل بصمت،

أحتمي بكوب الشاي،

وأحاول ألا أفقد ما تبقّى في قلبي.

نجوتُ... نعم،

لكنني فقدتُ تلك الطفلة التي كنتها.

لا زلت أحنّ

لا زلتُ أحنّ...

إلى بيتنا القديم،

إلى تلك الزاوية الصغيرة في المطبخ،

إلى ضحكاتٍ كانت تُضيء المساء دون كهرباء.

أحنّ لصوت معلمتي وهي تناديني،

لصمت الليل حين أفكر،

لرائحة الخبز المدهونة بالسّكر.

كل ما أحببته اختفى...

لكن الحنين بقي حيًّا كأني لم أرحل قط.

الحائط الذي كنتُ أتكئ عليه

كان في حياتي أمان يشبه الحائط،

شيء لا يُرى، لكنه يجعلني مطمئنًا.

ربما كان شخصًا،

أو فكرةً،

أو صوتًا يهمس في الليل: "لا تخف، أنا معك."

رحل ذلك الحائط...

فصرتُ أقف وحدي،

أتمايل أحيانًا، وأتماسك أحيانًا أخرى.

نجوت،

لكنني فقدت ما كنتُ أتكئ عليه.

لا تُحدّثني عن الوقت

يقولون إن الوقت كفيل بالشفاء،

لكنهم لا يعرفون أن بعض الجروح

تعيش في الوقت،

تكبر معه،

وتتغلغل في تفاصيله.

مرّت السنوات،

وأنا لا زلت أُفكر في نفس اللحظة،

نفس الاسم، نفس الرحيل.

نجونا،

لكننا فقدنا ثقتنا بالزمن.

العالم تغيّر وأنا كنتُ أراقب

أصبحت الدنيا أسرع،

والوجوه أقل دفئًا،

والمجاملات أكثر من الصدق.

كنت أراقب كل هذا بصمت،

أتساءل: هل الخطأ فيّ أم في العالم؟

لم أعد أجد ملامحي في الزحام.

نجوت من الضياع،

لكنني فقدت انتمائي لهذا الصخب.

لا ننسى... لكننا نُجيد التمثيل

نتصرّف وكأن شيئًا لم يكن،

نضحك، نُجامل، نُخطّط للغد،

لكن قلوبنا تخبّئ وجعًا يعرفه الله وحده.

كل منا يخبّئ حكاية لم تُكتمل،

غائبًا لم يعد.

نجونا،

لكننا فقدنا قدرتنا على النسيان.

و ما زال الأمل بالله موجوداً .

و سيتحقق بإذن الله.

الشوق لا يهرم

قد يظنّ البعض أن الشوق يُهزم مع الأيام،

لكن الحقيقة؟

أنه يكبر... ينضج... ويتخفّى.

لم أعد أقول: "أشتاق"،

لكن كلّ حواسي تقولها،

كل تفصيلة في وجهي تلمّح بها.

نجوتُ من الضعف،

لكنني فقدت راحتي منذ اشتقت ولم أُشفَ.

وعدتُ نفسي... وخذلتها

ذات مساء، وعدتُ نفسي أن أحيا بسلام،

أن أُغلق الأبواب التي تؤذيني،

أن أكون لي فقط.

لكنني ضعفت،

أعطيت، انتظرت، تعبت...

ثم أدركت أنني خذلت نفسي أكثر من الجميع.

نجوتُ من الآخرين،

لكنني لم أنجُ من نفسي.

ضجيج الداخل

في الخارج أبدو بخير،
أُتقن الابتسام، وأُجيد الصبر،

لكن في داخلي ضجيج لا ينطفئ.

أفكار تطرق رأسي دون استئذان،

ذكريات تنشب أظافرها في قلبي،

وأملٌ خافت يحاول أن يعيش.

نجوت من الانهيار،

لكنني فقدت سكوني.

ماذا لو لم نُغادر؟

أحيانًا، أفكر...

ماذا لو بقينا؟

ماذا لو لم نترك بيتنا، وطننا، مدرستنا، شرفاتنا، ألعابنا، رائحة القهوة على عتبات الصباح؟

هل كنا سنضحك أكثر؟

هل كنا سنكبر بطريقة أقل وجعًا؟

نجونا... نعم،

لكننا فقدنا أعذب الاحتمالات.

مررنا من هنا

لم نترك أثرًا في الأماكن التي عبرناها،

لا صورًا، لا نقوشًا، لا ضحكاتٍ على الجدران.

كنّا نرحل قبل أن نتجذّر،

نُغادر قبل أن نتعلّق.

كأننا ضيوف مؤقتون في كل شيء،

نكتب أسماءنا على الرمال...

وتأخذها الريح.

نجونا من الذكريات،

لكننا فقدنا شعور الانتماء.

أرغب أن أستريح

أُرهقت يا الله...

لا من الحياة، بل من الثقل الذي لا يُرى.

من الكلمات التي لم تُقال،

من الأحلام التي لم تُولد،

من الأبواب التي ظننتها ستُفتح لي، وأُغلقت برفقٍ قاسٍ.

أنا لا أُريد شيئًا،

فقط أرغب أن أضع رأسي على كتف العالم،

وأستريح.

نجوت من الصراخ،

لكنني فقدت القدرة على الهمس.

أبحث عنّي

في كل مكان...

بين الصور القديمة، في رفوف الكتب، في صوتي حين أغني وحدي،

أبحث عن تلك "أنا" التي كنتها.

تائهة، لكني أعرف أني لازلت هنا،

أستنشق الحياة، أتحسس الأمل،

وأتوق لأن أجدني من جديد.

نجوت من التلاشي،

لكنني فقدت الطريق إلى ذاتي.

لا أحد ينتظرنا هناك

كنت أظن أننا إذا صمدنا،

إذا عبرنا الخوف، الجوع، الغربة،

سنجد على الضفة الأخرى من الحياة أحدًا ينتظرنا...

بابتسامة، بحضن، بكوب شاي.

لكننا وصلنا،

ووجدنا المكان خاليًا إلا من أنفسنا،

ولا شيء يرحّب بنا سوى الصمت.

نجونا من العدم،

لكننا فقدنا الشعور بالاحتفاء.

تغيّرنا كثيرًا

صرنا نضحك بأدبٍ مكسور،

نُصافح بحذر،

ونُحب من خلف قلوبٍ محصّنة.

لم نعد نحن...

أو ربما كبرنا على طريقتنا،

بفقدٍ ناعم، وحكمةٍ لها طعم الرماد.

نجونا من الطفولة،

لكننا فقدنا براءتنا في الطريق.

ثم أصبحت الحياة أكثر صمتًا

لم تعُد الحياة تضجّ كما كانت،

كل شيء أصبح هادئًا...

حتى الألم أصبح يمرّ بصمت،

والفرح أيضًا لا يصرخ كما كان.

كأننا كبِرنا فجأة،

صرنا لا نُثير ضجّتنا حتى لأنفسنا.

نجونا من الضجيج،

لكننا فقدنا الحياة التي كنا نعرفها.

الوجع الذي لا نُفصح عنه

هناك وجع لا نبوح به،

لأنه أكبر من الكلمات،

وأكثر تعقيدًا من أن يُفهم.

نخفيه خلف ابتسامة معتادة،

ونمر بهدوء كأننا لا نحمل في صدورنا عاصفة.

نجونا من الانهيار،

لكننا فقدنا من يُحسن الإنصات.

نحن الذين صمتنا كثيرًا

كنا نُجيد الحديث،

لكن العالم علّمنا الصمت...

الصمت حين يُؤذينا أحد،

الصمت حين نُظلم،

الصمت حين نحتاج ولا نُلبى.

أصبح الصمت لغتنا الثانية،

نتحدث به أكثر مما نتحدث بأي شيء.

نجونا من الضجيج،

لكننا فقدنا صوتنا.

ومازلنا صامدون أقوياء.

بفضل الله.

تلك الليلة الطويلة

لا أتذكّر ما حدث فيها تمامًا،

لكنني أعرف أنها غيرتني إلى الأبد.

ليلة واحدة فقط،

جعلتني شخصًا آخر،

أكثر وعيًا... وأكثر حذرًا... وأقل اندفاعًا.

نجوت من السقوط،

لكنني فقدت براءتي القديمة.

كل الطرق تُشبه بعضها

نمشي ونُجرب ونُبدل...

نركض خلف أشياء نظن أنها خلاصنا،

لكن في النهاية،

كل الطرق تُشبه بعضها إن لم نكن نحن بخير من الداخل.

تُصبح المدن متشابهة،

والأحلام متشابهة،

والألم واحد.

نجونا من التعلّق،

لكننا فقدنا دهشة البداية.

لا نُغادر حقًا

نُودّع الأماكن...

نُغلق الأبواب...

نرحل...

لكن الحقيقة أننا لا نُغادر أبدًا.

نترك قلوبنا معلّقة هناك،

وأرواحنا تسير عكس اتجاه الرحيل.

نجونا من الحنين،

لكننا فقدنا أنفسنا في الطريق.

العودة التي لا تتم

نشتاق، فنحزم الحنين في حقائب الذاكرة،

نحاول أن نعود إلى الأماكن، إلى الأشخاص، إلى أنفسنا القديمة...

لكن لا شيء هناك كما تركناه.

تتغير الأرصفة،

تذبل الوجوه،

ونحن... لا نجد مكانًا لنا في الذاكرة.

نجونا من التوق،

لكننا فقدنا معنى العودة.

خُذلان بصوت منخفض

الخُذلان لم يأتِ صارخًا،

لم يُكسر الباب،

بل دخل بصمت،

جلس بيننا،

وأخذ ينسف ثقتنا حبةً حبة.

لم يعد في القلب متّسعٌ للتجربة،

صرنا نحب بحذر،

ونمنح بخوف،

وننتظر... دون أمل.

نجونا من السذاجة،

لكننا فقدنا طمأنينة الحبّ.

نُحسن التمثيل

تعوّدنا أن نُتقن مشاهد الحياة،

أن نضحك في وقت البكاء،

وأن نكون أقوياء حين ننكسر.

صرنا نُمثّل الهدوء،

والاكتفاء،

والرضا...

رغم أن بداخلنا فصول كاملة من التعب المؤجل.

نجونا من الشفقة،

لكننا فقدنا صدقنا مع الحياة.

رسائل عالقة.

كم من رسالة كُتبت ولم تُرسل؟

كم من كلمة علقت في الحلق؟

كم من "أنا أفتقدك" خافت أن تُقال؟

نخشى الضعف...

فنصمت.

نحب...

فنبتعد.

كل هذا الحذر كان نجاة،

لكننا فقدنا فرصًا كان يمكنها أن تُعيد النور إلى قلوبنا.

غرباء داخلنا

صرنا لا نعرف أنفسنا،

نجلس بصمت،

وننظر في المرآة... فلا نرى ملامحنا القديمة.

الفتى الذي كان يركض خلف الطائرات الورقية،

الفتاة التي كانت ترقص للغيم...

أين ذهبا؟

نحن الآن نسخ متعبة،

تحاول أن تبتسم كي لا تنهار.

نجونا من التوقّف،

لكننا فقدنا عفويّتنا الأولى.

نجونا، وأصبحنا الوطن...

ختام بطيء لفرحة جميلة نُسجت من حزنٍ قديم،
تُلامس الذاكرة وتترك أثرًا لا يُنسى.

الحنين صامتٌ لكنه جارح

لا يُحدث الحنين ضوضاء...

لكنه يأتي كنسمةٍ باردةٍ تمرُّ على جرحٍ مفتوح.

يأتي من عطر، من صوت بعيد،

من كلمة سمعناها في وقت لم نكن مستعدين فيه للبكاء.

نجونا من الذكرى،

لكننا فقدنا دفاعاتنا أمام الضعف.

أرواح عالقة في الصور

بعض الصور لا تُوثّق فقط لحظة،

بل تحفظ روحًا كاملة.

ننظر إليها،

فنشمّ رائحة المكان،

ونسمع الضحكة،

ونستعيد ما لن يعود.

نجونا من النسيان،

لكننا فقدنا القدرة على لمس الماضي.

كم كبرنا!

حين كنا صغارًا،

كنا نظن أن الكبار أحرار...

أنهم يملكون العالم.

كبرنا،

فاكتشفنا أن العالم يملكونه، لكن لا ينامون فيه بسلام.

نجونا من الطفولة،

لكننا فقدنا تلك البراءة التي كانت تُمطر قلوبنا بالطمأنينة.

قلوبنا متعبة

لم نعد نتجادل كثيرًا،

ولا نُطالب بالكثير،

ولا ننتظر الكثير.

تعلّمنا أن نحفظ مشاعرنا في أعماق بعيدة،

أن لا نُعاتب،

وأن نمضي... بصمت.

نجونا من الخيبات،

لكننا فقدنا فضاء القلب الواسع.

لا زال كل شيء ناقصًا

كأن شيئًا ما ضاع...

دون أن نعرف اسمه،

ولا شكله،

ولا أين فقدناه.

نُكمل الحياة،

لكن بفراغٍ صغيرٍ في القلب،

لا يُملأ بشيء.

نجونا من الحيرة،

لكننا فقدنا الإجابة.

كأننا لم نعش ما عشناه

تبدو بعض الفصول وكأنها حلم،

مُبهم، غامض،

يصعب تصديقه.

نُراجِع الأحداث...

نُفتّش عن الأدلة...

ولا نجد إلا بقايا شعور يُثبت أننا كنّا هناك يومًا.

نجونا من الذكرى،

لكننا فقدنا يقيننا بما حدث فعلاً.

تغيرت مفاهيم النجاة

كنّا نظن أن النجاة تعني السلام،

والطمأنينة،

والضوء.

لكننا الآن ننجو فقط لنُكمل...

ولو بأشلاء.

ولو دون ضوء.

ولو بلا يقين.

نجونا من النهاية،

لكننا فقدنا شكل البداية.

نكتب لنُشفى

نكتب لأننا لم نعد نجد من يسمع،

نكتب لأن الحبر يصبر أكثر من الناس،

نكتب لأن الكلمات تحمل أوجاعنا حين لا يقدر أحد.

نكتب كي لا ننسى،

وكي لا ننكسر،

وكي نقول لأنفسنا: لقد مررت بهذا... ونجوت.

نجونا من الاختناق،

لكننا فقدنا من يفهم ما نكتب.

نحن لا نُشفى تمامًا

نظن أننا تجاوزنا،

أننا تصالحنا،

أننا أقوى...

لكن يكفي مشهد بسيط، صوت، لون، عبارة...

ليقف كل شيء،

ويعود الوجع كأنه لم يغادر.

نجونا من المواجهة،

لكننا فقدنا السلام الكامل.

نجونا، ولكننا فقدنا شيئًا

نعم... نجونا.

من الحرب، من الفقد، من التشظّي، من أنفسنا أحيانًا.

لكننا في الطريق...

نسينا كيف نضحك من القلب،

وفقدنا ملامح أحلامنا،

وتغيّرنا بما لا يمكن عكسه.

هذا الكتاب ليس حكاية نصر،

بل توثيق لرحلةٍ طويلةٍ من البقاء.

نجونا،

ولكننا فقدنا شيئًا لا يُقال...

ولا يُستعاد.

الخاتمة

نجونا... لكننا فقدنا تلك النسخة البريئة منا، تلك الأرواح التي كانت ترى الحياة من خلال نافذة صغيرة يغمرها ضوء الصباح، بضحكة أخت، بنداء أم، بخبز أبي دافئًا من الفرن ، بلعب أخوة.

نجونا... لكننا فقدنا أصواتًا لن تعود، وجوهًا غابت خلف جدران الحرب والغربة، وذكريات لم تُكمل نُضجها فينا.

ليست النجاة دائمًا خلاصًا، بل في كثير من الأحيان هي شكل آخر للفقد، لون جديد من الألم، حياة نبدأها بنصف قلب، بنصف بسمة، وبأملٍ هشٍ كأوراق الخريف.

كتبنا هنا ما لم نكن نستطيع قوله، نثرنا صدقنا، بكينا بصمتٍ بين السطور، وربما ضحكنا قليلاً ونحن نكتب عن طفولتنا... ثم خفتت الضحكة سريعًا.

هذا الكتاب ليس رواية، ولا مذكرات، بل هو مرآة، عسى أن يرى كل من مرّ بالتشظي نفسه فيها... فيلتقط ما تبقّى من روحه، ويضمّه إليه، ويعلم:

أنه وإن فقد الكثير...

فما زال فيه قلب ينبض، وعين تحلم، وقلم يكتب...

وهذا وحده كافٍ للنجاة من جديد.

بقلم الكتابة :

أبرار العصعوص.

الناجي الوحيد.

والآن، عُد إلى الصفحة الأولى... تذكُر؟

حين طلبتُ منك أن تعود بعد أن تنتهي؟

لقد حان الوقت.

اكتب هنا شعورك بعد أن أغلقت آخر صفحة...

ما الذي بقي في قلبك؟ ماذا غادر؟ وما الذي وُلد من جديد؟

هذه المساحة لك، وحدك.

جعلها الله جبرًا كما أردتَ، وذكرياتٍ لا تُنسى كما أردتُ أنا.

هنا بقلمك أيها القارئ لا قلمي ، اترك لك القلم :

"اللهم اجعل في هذا الكتاب نوراً، وفي كلماته أثراً، ولمن قرأه سكينة وطمأنينة. اللهم ارزق قارئه فهمًا عميقًا، وقلبًا راضيًا، ونفسًا مطمئنة. اللهم اجعل له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل همٍ فرجًا، واغمره بعطفك ولطفك حيثما كان. اللهم اجبر كسره، وكن لهٌ جبراً لا يُرى إلا بك، وأجب دعاءه بالخير حيثما دَعاك. اللهم ارزقه الفردوس الأعلى من الجنة، وأجره من النار، واكتب له من فضلك ما لا يخطر له على بال. آمين."